ISSN 2170-0796

# دلالات التقديم و التأخير في القرآن الكريم عند فاضل السامرائي

د. سميرة شادلي كلية الأدب و اللغات جامعة طاهري محمد بشار ، الجزائر
البريد الألكتروني : chadlisamira2015@gmail.com

الجملة في العربية ركنان أساسيان مسند و مسند إليه، إضافة إلى الفضلة، وقد جعل النحاة لكل رنن رتبة خاصة به ، مما جعل الكلام مرتبا ، أما إذا ما غيرت في هذه الرتب فقد خرجت من الأصل إلى باب التقديم و التأخير، وهو باب خاض فيه الكثير من النحاة والبلاغيين نحو عبد القاهر الجرجاني الذي أولاه عناية خاصة يقول فيه"هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعه و يفضي بك إلى لطيفه و لا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه و يلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[1]

ذهب الجرجاني إلى ضرورة البحث و الكشف عن أسباب التقديم و التأخير وعدم الاكتفاء بالقول لمجرد العناية و الاهتمام، فعاب على سيبويه قوله في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى المفعول "كأنهم(إنما) يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، و إن كان جميعا يهمانهم و يعنيانهم"[2] ، ودعا إلى تبيان أسباب هذه العناية وهذا الاهتمام ، حتى تتجلى الغاية من التقديم و التأخير "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال أنه قدم للعناية، و لأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبما كان أهم؟ ..."[3]

لقد تبنى السامرائي دعوة الجرجاني هذه ، و عمل على تحقيقها فجعل من سبب التقديم و التأخير في التعبير القرآني غايته و هدفه، يقول عن الجملة"و الأصل في الجملة التي مسندها اسم أن يتقدم المسند إليه نحو (أخوك قادم) و لا يتقدم المسند إلا لسبب ...والأصل في الجملة التي مسندها فعل أن يتقدم الفعل نحو (يقدم أخوك)، و لا يتقدم المسند إليه إلا لسبب"[4] ، و يقول أيضا "...فقد دخلت في باب التقديم و التأخير، و لابد أن تكون فعلت ذلك لسبب اقتضاه المقام، ويدخل ذلك في باب العناية والاهتمام الذي تتعدد أسبابه و أنواعه"[5]

لقد بحث السامرائي عن أسباب التقديم و التأخير في كتبه النحوية و كتبه التفسيرية جاعلا من التعبير القرآني مثله الأعلى و النص الذي لا تنتهي عجائبه، كيف لا و هو الذي بلغ مرتبة الإعجاز،وقهر أعناق الجبابرة يقول عن التقديم والتأخير في القرءان الكريم " ولكن هذه هي الحقيقة تراها جلية، و اضحة في أفصح الكلام و أعلاه، أعني في كتاب الله تعالى فقد يأتي بالجملة على أصلها و قد يقدم الكلمة على الكلمة، و يقدمها على الكلمتين أويقدمها على الجملة كلها، و لكل ذلك سبب و قصد وإلا كان ضربا من العبث"[6]

قسم السامرائي أحوال التقديم و التأخير إلى قسمين، قسم يتم فيه تقديم اللفظ على عامله، و قسم ثان يتم فيه تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل، لذلك ستعتمد هذا التقسيم من أجل بسط النماذج القرآنية ،و بسط تفسير السامرائي لها.

ISSN 2170-0796

**أ-القسم الأول: تقديم اللفظ على عامله:**

هذا النوع من التقديم و التأخير كثير في اللغة العربية، و كثير في التعبير القرآني يتم فيه تقديم اللفظ على عامله، كتقديم المفعول به على فعله، و تقديم الحال على فعله، و تقديم الجار و المجرور على فعلها، و تقديم الخبر على المبتدأ، و نحو ذلك، أما عن غرضه فقد أوعزه السامرائي إلى الاختصاص في الغالب، و إلى أغراض أخرى كالمدح، و الثناء والتعظيم و التحقير.

و سنأخذ بعض التعابير القرآنية كشواهد على اعتماد السامرائي للتقديم و التأخير في تفسيره البياني، وذلك مثل قوله تعالى " اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"[7] ففي هذه الآية قدم المفعول به (إياك) على فعل العبادة، وقدمه كذلك على فعل الاستعانة والقصد من ذلك في تفسير السامرائي هو اختصاص الله سبحانه بالعبادة و الاستعانة وحده لا شريك له" و سبب ذلك أن العبادة و الاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به..."[8] ، أما تفسيره لعدم تقديم مفعول الهداية في قوله " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" فلم يقل (إيانا اهد) هو عدم وجود الاختصاص في طلب الهداية "لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص، إذ لا يصح أن تقول (اللهم اهدني وحدي و لا تهدي أحدا غيري..."[9]

ومثل هذا القول كثير و تفسير السامرائي هذا كثير هو كذلك نحو قوله تعالى " قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا"[10] و سبب التقديم و التأخير في هذه الآية عند السامرائي هو وجود الاختصاص وعدمه فقدم الفعل (أمنا) على الجار و المجرور (به)، و أخر (توكلنا)عن الجار و المجرور (عليه) "وذلك أن الإيمان لما لم يكن منحصرا في الإيمان بالله بل لابد معه من رسله و ملائكته و كتبه و اليوم الأخر ... بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله دون غيره غيره لا يملك ضرا و لا نفعا فيتوكل عليه"[11] ومن ذلك أيضا قوله تعالى " أَلَا اِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ"[12] فصيرورة الأمور إلى الله وحده دون غيره ، لذلك قدم الجار والمجرور على الفعل (تصير) . وشبيه بهذا قوله تعالى " اِلَيْهِ أَدْعُو وَاِلَيْهِ مَآبِ"[13] فالدعاء و الإياب لا يكون إلا لله تعالى. و من ذلك تقديم الجار والمجرور على اسم الفاعل في قوله تعالى "إلا كانوا عنها معرضين"[14] ، و لم يقل "إلا كانوا معرضين عنها" "ليدل على أن الإعراض خاص بآيات ربهم فهم لا يطيقون سماع آيات ربهم ..."[15]

ومن أمثلة تقديم الخبر على المبتدأ لغرض الاختصاص قوله تعالى "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله"[16] " فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتيح الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال (لا يعلمها إلا الله)"[17]

وقال تعالى في سورة يس " وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[18] "فقدم الجار والمجرور (إليه) على (ترجعون) لقصد الاختصاص، و المعنى أن الرجوع إليه حصرا لا إلى غيره ..."[19] ففسر السامرائي آيات عدة تقدم فيها الجار و المجرور على الفعل بالاختصاص إلا أنه ذكر غرض العناية و الاهتمام في تفسير بعض الآيات كقوله تعالى " لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتقِينَ"[20] وقوله " لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا"[21] وقال في سورة (ق) "لهم ما يشاءون فيها و لدينا مزيد"[22] فقدم في الآيتين الأولى والثانية (فيها) على (ما يشاءون)، وقدم في الآية الثالثة (ق) (ما يشاءون) على (فيها) وكل ذلك في تفسير السامرائي قد اقتضاه المقام و الاهتمام بمدار الكلام؛ ففي سورتي النحل

ISSN 2170-0796

والفرقان يدور الكلام حول الجنة إذ قال تعالى في النحل " وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتقِينَ"[23] وقال في الفرقان " أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا "[24] "فالكلام كما ترى على الجنة في الموطنين فقدم ضمير الجنة (فيها) على (ما يشاءون) "[25] أما في آية (ق) فقد قدم (ما يشاءون) على (فيها) وذلك في تفسير السامرائي لأن الكلام يدور حول من سيدخل الجنة إذ قال تعالى "هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ"[26] "فالضمير في (يشاءون) كما هو معلوم يعود على من سيدخل الجنة فناسب كل تعبير مكانه"[27]

و من أمثلة تقديم الخبر على المبتدأ لغرض الاختصاص قوله تعالى " وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ "[28] "فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتيح الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب"ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال (لا يعلمها إلا الله) "[29]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى " فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "[30] فقدم (بيده) الخبر على المبتدأ (ملكوت كل شيء) لإفادة القصر أو الحصر، كما هو موضح في تفسير السامرائي "فإن ملكوت كل شيء بيده هو حصرا ليس لآخر فيه نصيب و لا بيده شيء، فإن كل يد غير يده صفر"[31] أما قوله تعالى " وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ"[32] ففيه تقديم الخبر (آية) على المبتدأ (الأرض)، وفيه ذهب السامرائي إلى أن القصد من هذا التقديم هو العناية و الاهتمام بمدار الكلام "وذلك لأن الكلام على العلامات الدالة على قدرته و ليس الكلام على الأرض، و قد ساق الليل والنهار و الشمسو القمر دلائل على قدرته و ليس لذاتها"[33] وقد ذكر السامرائي أن غرض الاختصاص هو أكثر الأغراض و المقاصد من وراء التقديم والتأخير، إلا أن هذا لا ينفي وجود أغراض أخرى مثل المدح في قوله تعالى " وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ"[34] " فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحا و إنما هو من باب المدح و الثناء"[35]

**ب-القسم الثاني: تقديم اللفظ و تأخيره على غير عامله:**

اهتم السامرائي بظاهرة التقديم و التأخير في القرآن الكريم بجميع أنواعها ، فرأيناه في القسم الأول يقف عند تقديم اللفظ على عامله، باحثا عن الأسباب و المقاصد، كما وقف أيضا عند تقديم الألفاظ بعضها على بعض من غير عامل، مشيرا بذلك إلى دقة اختيار القرآن الكريم في ترتيب ألفاظه بما يتناسب مع المقام وسياق الكلام "إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ و رصفها بجنب بعض، دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم و التأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك ، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام و الاتساق العام في التعبير على أكمل وجه و أبهى صورة ..."[36]

ذهب السامرائي إلى أن تقديم الألفاظ له أسبابه ومقاصده التي تحتاج من المفسر البياني والدارس الاهتمام، و البحث ، فقد ذكر في كتابه التعبير القرآني و كتبه التفسيرية جملة من المقاصد نجملها في النقاط التالية:

ISSN 2170-0796

1-التدرج حسب القدم و الأولوية في الوجود

2-حسب الفضل و الشرف

3-حسب الرتبة

4-حسب الكثرة و القلة

5-وقد يكون التقديم و التأخير لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق، فتراه يقدم لفظة في موضع و يؤخرها في موضع آخر حسب ما يقتضي السياق.

و لتوضيح كل ذلك سنعرض بعض النماذج القرآنية و نعرض معها تفسير السامرائي لهذا النوع من التقديم و التأخير.

1- ذكر السامرائي مجموعة من التعابير القرآنية قدم فيها لفظ على لفظ حسب القدم والأولوية في الوجود " فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا ..."[37] من ذلك قوله تعالى " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[38] فقدم الجن على الإنس و ذلك لأن خلق الجن قبل الإنس بدليل قوله تعالى "وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ"[39] "فذكر الجن أولا ثم ذكر الإنس بعده "[40]

ونحو قوله تعالى " لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ" [41] فبدأ بالسنة ثم النوم "لأن السنة و هي النعاس تسبق النوم..."[42] ومن ذلك أيضا تقديم عاد على ثمود لأن عاد أسبق من ثمود " وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ"[43]

2-مجموعة أخرى من التعابير القرآنية جعل السامرائي الفضل و الشرف غرضا و سببا للتقديم فيها منها قوله تعالى " وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا"[44] فذهب السامرائي إلى أن ترتيب هذه الآية بدأ بالله سبحانه و تعالى، ثم الرسول ثم ترتيب السعداء من الخلق بحسب الفضل و الشرف "فقدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم..."[45]

ومن ذلك أيضا تقديم السمع على البصر لأنه أفضل منه وذكر عددا من الآيات منها " وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"[46] وقوله" إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا" [47] ومن ذلك ما ذكره في تفسير آية يس " إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[48] فرأى السامرائي أن تقديم (إنك لمن المرسلين) على (صراط مستقيم) راجع إلى أن كونه من المرسلين، أفضل من كونه على صراط مستقيم "لأن كونه مرسلا يعني أنه على صراط مستقيم وأنه نبي..."[49] ، ومثل هذا التفسير وجدناه في آية أخرى من سورة يس يقول فيها "وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ"[50] فجعل السامرائي من تفاضل النخيل و العنب سببا في تقديم النخيل على العنب "...فإن فوائد النخلة كثيرة، و لا يخلوا أي جزء منها من فائدة، و لا تقاس شجرة العنب بالنخلة من حيث

الفائدة، فشجرة العنب ضئيلة الفائدة بخلاف ثمرها"[51] ، أما عن تقديم العنب على النخيل في سورتي عبس و الرعد، فقد أرجعه السامرائي إلى مناسبة السياق ومدار الحديث.

3-التقديم و التأخير بحسب الرتبة أخذ حيزا أوفر في تفسير السامرائي للتعابير القرآنية نحو قوله تعالى "لا تُطِعْ كُلَّ حَلاّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ"[52] فترتيب كلمات هذه الآيات حسب تقدير السامرائي خاضع لمبدأ الرتبة في الإيذاء، فتدرج القول من المؤذي إلى الأكثر إيذاء "فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس و هذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرحلة أبعد في الإيذاء و هو أنه يمنع الخير عن الآخرين...ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها في الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء، ثم ختمها بقوله (أثيم)، و هو وصف جامع لأنواع الشرور..."[53] .

و من هذا القبيل ما ذكره في "على طريق التفسير البياني" حول قوله تعالى " بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ"[54] فتقديم الشفاعة على القدرة جعله السامرائي من باب الترتيب الطبيعي "فإن من استعان بشخص على آخر يشفع أولا عنده، فإن لم يجد ذلك نفعا لجأ إلى القوة و ليس العكس "[55] ، و من ذلك تقديم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادة الله في قوله تعالى " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ"[56] و الذي أرجعه السامرائي إلى الأسباب التالية:

1-أن عبادة الشيطان تفسد عبادة الله 2-أن عبادة الشيطان مع عبادة الله تضر، وعبادة الله مع عبادة الشيطان لا تنفع 3-أن ترك عبادة الشيطان من باب دفع الضرر و أن عبادة الله من باب جلب المنفعة ودفع الضرر إلا أنها لا تنفع إذا لم تترك عبادة الشيطان. 4-أن تنفيذ النواهي أيسر من تنفيذ الأوامر.5-أنك إذا وجدت إنسانا ضالا على الطريق، فإنك لابد أن توقفه ثم تعيده إلى الطريق المستقيم، و عبادة الشيطان ضلال فلابد من تركها أولا ليخلو القلب إلى الله.

6-ومنها أنه وجد أكثر بني آدم يعبدون الشيطان فنهاهم عن ما هم فيه، لتستقيم عبادتهم لله .

ومنها قوله تعالى " فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"[57] فتقديم السر على الإعلان و هو كذلك راجع لسبب الرتبة و الأسبقية إذ يقول السامرائي "و قد قدم السر على الإعلان، قيل لأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة العلن، لأن السر يسبق الإعلان...وقيل إن العلم بالسر يدل على الإحاطة بالمعلوماتفمن كان يعلم السر فهو يعلم العلن من باب أولى"[58] وقد أشار السامرائي إلى أنه قد تقدم الجهر على السر أو الإخفاء في مواضع أخرى حسب ما يقتضيه المقام و السياق، كما أشار إلى ملحوظة أخرى تخص تقديم الجهر على الإخفاء أوالعكس، مفادها أن ذكر المنافقين أو الكفار يصحبه تقديم الإخفاء على الجهر في حين يصحب ذكر المؤمنين تقديم الإبداء على الإخفاء، ومثل ذلك قوله تعالى " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ"[59] فبدا هذا الترتيب منطقي للسامرائي لأنه بدأ بإثبات (الأحدية)، و هي رأس المسائل الإعتقادية في الإسلام، ثم إثبات (الصمدية) ثانيا "...والتوحيد مقدمة لما بعده فمن آمن بالله وحده، و كفر بما عاداه آمن بأنه الصمد... فبدأ بما هو أولى، و ما تقديمه طليعة الاعتقاد و الترتيب منطقي" [60]

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الكوثر " فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ"[61] فقدم الصلاة على النحر، فكان لذلك تفسير عند السامرائي نجمله في النقاط التالية :

ISSN 2170-0796

1-أن الصلاة أهم من النحر و أكبر عند الله.2-أن الصلاة أعم من النحر و القيام بها أكثر من النحر.3-أن الصلاة حق الله وأن النحر حق العباد و حق الله مقدم على حقوق العباد.

وبهذا بين السامرائي أن رتبة الصلاة أعلى و أولى من رتبة النحر لذلك كان تقديمها أحق من كل الجوانب. و قال الله تعالى في سورة الإنسان " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"[62] فعلل السامرائي تقديم المسكين على اليتيم، و تقديم اليتيم على الأسير باختلاف رتبهم "قدم المسكين على اليتيم لأن المسكين محتاج على الدوام، و إطعامه قد يكون على الوجوب، و قد يكون على التطوع، فهو من الأصناف المذكورة في مصاريف الزكاة ، أما اليتيم فقد يكون محتاجا، و قد يكون غنيا بخلاف المسكين ولذا لم يدخل فيمن تصرف إليهم الزكاة أما الأسير فإنه يكون كافرا"[63] ففسر السامرائي التقديم و التأخير في هذه الآية باختلاف الرتبة من ناحية، و حسب القلة و الكثرة من ناحية أخرى، وحسب القدرة على التصرف من ناحية ثالثة.

4-التدرج من القلة إلى الكثرة أو من الكثرة إلى القلة، سبب أخر من الأسباب التي ذكرها السامرائي التي لتفسير تقديم كلمة على أخرى، مثل ما ورد في قوله تعالى " أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"[64] فترتيب هذه الطوائف أو الأصناف من العباد خاضع لمبدأ الترتيب من القلة إلى الكثرة حسب ما ورد في تفسير السامرائي " ...فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة والعكوف يكون في المساجد عموما. والعاكفون أقل من الراكعين، لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة ، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد، و الراكعون أقل من الساجدين، و ذلك لأن لكل ركعة سجدتين، ثم أن كل راكع لا أن يسجد و قد يكون سجود ليس له ركوع..."[65] ومثل هذا ما ورد في تفسير السامرائي لقوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[66] فتدرج من الأقل إلى الأكثر، و الأعم من الأعمال "فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود، و هو أكثر، ثم عبادة الرب و هي أعم، ثم فعل الخير"[67] و كذلك تقدم الكافر على المؤمن في سورة التغابن " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[68] جعله السامرائي من باب تقديم الكثرة على القلة، لأن الكفار أكثر من المؤمنين، و نحوه قوله تعالى"ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ"[69] "فقدم الظالم لكثرته، ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله، ثم السابقين و هم أقل"[70]

أما قوله تعالى في سورة الناس " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ"[71] ففيه تدرج من القلة إلى الكثرة، و ضحه السامرائي بقوله "وقد تدرج في مجموعة الناس من القلة إلى الكثرة ذلك أن ناس الملك أكثر من ناس المربي، و ناس الإله أكثر من الملك ،فإن ناس الإله هم كل الناس بخلاف الملك..."[72]

5-لقد ذكر السامرائي هذه الأسباب و المقاصد للتقديم و التأخير، إلا أنه ذهب إلى أن التقديم والتأخير قد يكون لأسباب و ملاحظ أخرى، لا تشكل قاعدة إنما تكون حسبما يقتضيه المقام و السياق "وقد يكون التقديم و التأخير لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فتراه يقدم لفظة في موضع، و يؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضيه السياق"[73] ، مثل السامرائي لذلك بمجموعة من التعابير القرآنية، نحو ما جاء في تقديم (الضرر) على (النفع) أوالعكس فقد تقدم النفع على الضرر في قوله

 ISSN 2170-0796

تعالى " قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّاالا مَا شَاءَ اللَّهُ "[74] لتقدم ما يتضمن النفع و تأخر ما يتضمن الضرر " مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ"[75] وقوله " وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَامَسنِيَ السوءُ"[76]. أما في سورة يونس فقد تقدم الضرر على النفع، لتقدم ما يناسب الضرر فقال تعالى" وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلناسِ الشر اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ"[77] وقال أيضا " وَاذَامَسس الإِنْسَانَ الضر دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَما كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُمَر كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا الى ضُرٍّمَسهُ"[78] فتقدم الضرر على النفع، و كان مناسبا لما تلاه في قوله " قُلْ أَرَأَيْتُمْ انْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ"[79] بين السامرائي مناسبة تقديم الضرر على النفع في هذه السورة "فكان المناسب تقديم الضرر على النفع ههنا"[80] .

ومن ذلك أيضا تقديم الرحمة على العذاب، أو العكس، فقد أشار السامرائي إلى أن القرآن يقدم الرحمة غالبا نحو قوله " يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ"[81] وقوله "ان ربك لذو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ"[82] وقوله " غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطوْلِ"[83] "...ويقدم العذاب أحيانا في مواضع اقتضت الحكمة و السياق ذلك، كتقديم العذاب للترهيب و الزجر نحو ما ورد في سورة المائدة " أَلَمْ تَعْلَمْ ن اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السمَاوَاتِوَاالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[84] فقدم العذاب على المغفرة "لأنها وردت في سياق ذكر قطاع الطرق و المحاربين و السراق فكان المناسب تقديم ذكر العذاب..."[85]

ومثل هذا ما ورد في سورة الإخلاص " لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ"[86] حيث قدم (لم يلد) على (لم يولد) مع أن العكس هو الذي يتبادر إلى الذهن، وهو الذي يخضع للترتيب المنطقي، إلا أن هذا التعبير مناسب جدا لسياقه ومقامه في تفسير السامرائي"و الحق أن تقديم ما قدم إنما كان لسبب، ذلك أنه رد على ما كان يعتقده مشركوا العرب، و أصحاب الملل الأخرى من أهل الكتاب و غيرهم، من أن الله ولد أبناء أو بنات، و لم يكونوا يقولون إن الله أبا فقدم ما كان أهم"[87].

وشبيه بهذا قوله تعالى " انَّ نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي امَامٍ مُبِينٍ"[88] فذهب السامرائي إلى أن تقديم (إحياء الموتى) على (كتابة ما قدموا) لم يخضع لترتيب السبق في الزمان أو غيره، و إنما هو خاضع لملاحظ أخرى أجملها في النقاط التالية :

1-أنه المناسب لما قبله من الإنذار و التبشير فإن ذلك يكون في الحياة بعد الموت.

2-أن كتابة ما قدموا من الأعمال إنما هي لما بعد الموت، و الأقل قيمة للكتابة فقدم الأهم لذلك.

3-أنه قدم رتب المذكورات بحسب الأهمية، فإن أهم شيء فيما ذكر هو الإحياء بعد الموت...

4-أنه قدم الأهم من ناحية أخرى، و هو ما لا يستطيع فعله إلا الله، و هو إحياء الموتى ولذا جاء بأسلوب القصر المؤكد، أما الكتابة فإنه يمكن أن يفعلها المخلوقين إن لم تكن بنفس الدرجة من الدقة والإحاطة...

5-أنه قدم إحياء الموتى لأن السورة مبنية على ذلك، و أن جوها يشيع فيه ذكر الحياة بعد الموت.

## الهوامش:

1-الجرجاني. دلائل الإعجاز: ص 94
2-سيبويه، الكتاب ،ج1، ط3: ص 34
3-الجرجاني ، دلائل الإعجاز: ص 95
4-السامرائي، الجملة العربية تأليفها و أقسامها : ص 34-35
5-نفسه :ص 35
6-السامرائي، الجملة العربية تأليفها و أقسامها: ص 38
7-الفاتحة:06
8-السامرائي، التعبير القرآني: ص 49
9-نفسه: ص 50
10-الملك: 29
11-السامرائي، التعبير القرآني: ص 50
12-الشورى :53
13-الرعد:32
14-يس:46
15-السامرائي، على طريق التفسير البياني، ج2 : ص 165
16-الأنعام:59
17-السامرائي، التعبير القرآني: ص51
18-يس:27
19-السامرائي، على طريق التفسير البياني،ج2: ص 71
20-النحل:31
21-الفرقان:16
22-ق:35
23-النحل:30-31
24-الفرقان:15-16
25-السامرائي، على طريق التفسير البياني،ج2: ص206
26-ق:32-35
27-السامرائي، على طريق التفسير البياني،ج2 :ص206
28-الأنعام:59
29-السامرائي، التعبير القرآني: ص 51
30-يس:83
31-السامرائي،على طريق التفسير البياني.ج2 ص 216.
32-يس:33
33-السامرائي، على طريق التفسير البياني ،ج2 : ص 121.
34-الأنعام:84
35-السامرائي، التعبير القرآني: ص 51
36- التعبير القرآني: ص53
37-نفسه :ص 53
38-الذاريات:56
39-الحجر:27
40-التعبير القرآني: ص53
41-البقرة:255
42- التعبير القرآني:ص53
43-العنكبوت:38
44-النساء:69
45- التعبير القرآني: ص 54
46-الشورى :11
47-الإنسان:2
48-يس:3-4
49- على طريق التفسير البياني ، ج2 : ص 10
50-يس:35
51- على طريق التفسير البياني، ج2: ص 122
52-القلم: 10-12
53- التعبير القرآني : ص 56
54-يس: 23
55- على طريق التفسير البياني، ج2: ص 85
56-يس: 60-61
57-يس:76
58- على طريق التفسير البياني، ج2: ص 265
59-الإخلاص:1-2
60- على طريق التفسير البياني، ج1: ص 57
61-الكوثر:02
62-الإنسان:08
63- على طريق التفسير البياني، ج1 : ص 169
64-البقرة:125
65- التعبير القرآني: ص 57
66-الحج:77
67- التعبير القرآني : ص58
68-التغابن:02
69-فاطر:32
70- التعبير القرآني:ص59
71-الناس:1-3
72-على طريق التفسير البياني، ج1: ص 49
73- التعبير القرآني : ص 59
74-الأعراف:188
75-الأعراف:178
76-الأعراف:188
77-يونس:11
78-يونس: 12
79-يونس:50
80-السامرائي، التعبير القرءاني:ص 60
81-المائدة:18
82-فصلت:43
83-غافر:3
84-المائدة:40
85-السامرائي، التعبير القرآني:ص 61
86-الإخلاص: 3
87- على طريق التفسير البياني، ج1 : ص 67
88-يس:12

ISSN 2170-0796